



ليس هناك أَجَلٌ ولا أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْكَلْمَةِ، يَسْمَعُهَا الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ!.

كان موسى -عليه السلام- في غربةٍ عن وطنه، وهو يسير في ظلمة الليل وبرده ووحشته، مع زوجه الصالحة بنت الرجل الصالح، غريبان.. يلتمسان نوراً ودفناً وهداية «لَعَلَّي آتَيْتُكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» (10)» (سورة طه). ولم يكن يدري موسى أن خطواته في تلك الليلة الموحشة، كانت تقريره من الشرف الأعظم الذي كان ينتظره، لقد كان موسى على موعدٍ وأَجَلٍ مُسْمَى، مع شرف الرسالة، وكلام رب سبحانه.

أَيُّ شرف أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِكَ لِكَلَامِ الرَّبِّ لَيْسَ بِيُنْكَ وَبِيُنْهَ تَرْجِمَانٌ؟! أَيُّ طَمَانِيَةٍ وَسَكِينَةٍ.. أَيُّ نِعْمَةٍ وَمِنْهَا أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِكَ لِرَبِّكَ وَهُوَ يَقُولُ لَكَ: «وَاصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي»؟!، هَذَا أَعْظَمُ الْحُبُّ وَالْقُرْبَ، وَالْاِخْتِصَاصُ وَالْوَلَايَةُ. نَعَمْ، إِنْ بَعْضَ الْعَبَادِ يَصْنَعُهُمُ اللَّهُ عَلَى عَيْنِهِ، بَحْسُنِ أَفْدَارِهِ، وَجَمِيلِ اِخْتِيَارِهِ، أُولَئِكَ الْأَصْفَيَاءُ الْأُولَىِّاَءُ، لَهُمُ الْبَشَرِيَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلٌ لِكَلْمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. إِنْ مُوسَى الَّذِي سَمِعَ هَذِهِ الْكَلْمَةَ الْحَانِيَةَ، كَانَ فِي خُوفٍ وَوَجْلٍ مِنْذَ أَسْتَهَلَّ صَبَيَاً، فَقَدْ قُُلِّدَ مُسْتَحْقَا لِلْقَتْلِ فِي قَانُونِ الْفَرْعَوْنِ، وَمِنْ خُوفِ أَمِهِ عَلَيْهِ وَضَعْتِهِ فِي التَّابُوتِ، ثُمَّ قَذَفَتْ بِهِ فِي الْيَمِّ، وَظَلَّ فَوَادِهَا فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لِتَبْدِيْ بِهِ، لَوْلَا أَنْ رَبَّ اللَّهِ عَلَى قَلْبِهَا. لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا الْجَنِينَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أَمِهِ يَصْنَعُهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، هَلْ كَنَا سَنَتُوقِعُ أَنَّهُ سَيُولَدُ فِي خُوفِ مِنَ الْقَتْلِ؟! وَهَلْ كَنَا نَظَنَ أَنَّهُ سَيُقْذَفُ بِهِ صَغِيرًا ضَعِيفًا فِي الْيَمِّ؟! تَلَكَ صَنَاعَةُ الرَّبِّ لِأَنْبِيَاءِهِ وَأَشْرَفِ أُولَيَائِهِ!.

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (216) (سورة البقرة)، ثُمَّ يَأْخُذُهُ عَدُوُّ اللَّهِ الظَّالِمُ الْكَافِرُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْ قَلْبِ الْأَمِّ وَهِيَ تَنْتَظِرُ مَا يَصْنَعُ هَذَا الْفَرْعَوْنُ بِابْنِهَا.

ثُمَّ يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى أَنْ يَقْتُلَ، فَيَتَأْمِرُ عَلَيْهِ الْقَوْمُ لِيُقْتَلُوهُ، وَيَخْرُجُ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، مِنْ وَرَائِهِ الْطَّلَبُ وَالثَّأْرُ، وَمِنْ أَمَامِهِ الْغَرْبَةُ وَالْفَاقَةُ، وَمَعَ هَذَا.. «وَاصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي»!.

ما زال يدور بخلد موسى وهو يسابق القوم أن يدركوه، والقتلُ قاب قوسين أو أدنى؟!، هل كان يظن وهو يسير مغموماً حزيناً أن الشرف الأعظم في انتظاره؟!، وأن ربه يبتليه ويربيه ويصفعه لنفسه؟!، لقد قاسي موسى آلام الغربة، وهو بعيد عن وطنه وأقاربه، وأصحابه وأحبابه. واضطر موسى أن يعمل أجيراً بعدهما كان في قصر الملك ورفاهيته، ورغم ذلك.. «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»!.

إن هذه الأقدار والأحداث لم تكن تجري على سبيل المصادفة، بل هي الصناعة الربانية لهذا السيد العظيم، الذي يحبه الله في عليائه، وتحبه ملائكته، وعباده الصالحون، ويعده ربه للمهمة الكبرى.. النبوة والرسالة.

حين أخبر الله موسى عن اصطفائه واختياره لرسالته، ذكره بسنوات عمره التي كانت تجري أحداثها على عين الله، وكانت مخاوفها ومتاعبها من صناعة الله لعبد و المصطفاه، فذكره ربه بقصة ميلاده، وما عانته أمه ولاقته من الخوف والترقب.. لكنه سيعود إليها ولو وصل إلى يد العدو!، وذكره ربه بما لقيه من الغم والهم بعدهما قتل الرجل، وذكره بما ابتلاه ربه من الفتنة «وفتنك فتننا»، وذكره ربه بسنوات الغربية التي قضاها في أهل مدين، حتى تم تأهيله وإعداده للمهمة الكبرى الخاصة بالعلى الأعلى سبحانه.

«وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفْهُ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفْهُ فِي الْيَمِ فَلَيْلِقُهُ الْيَمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّ لَهُ ۝ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِي وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْنَكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّمُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ۝ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقْرَأَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ ۝ وَقَاتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِ وَفَتَنَكَ فُتُونًا ۝ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدِينَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرِ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)» (سورة طه).

أيها المؤمن بأن فوق هذا الملكوت رباً عظيماً، يدبر ويقدر: تأكد أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم كريمة على الله، وأن الله يصنعها على عينه، وأن الصناعة الربانية لا تستجيب لأهوائنا وعقولنا الفاسدة، ولا تستعجل لعجلتنا. ولو كان هناك طريق للعزّة والنصرة ليس فيه بلاء ولا فتن، ولا غم ولا خوف، ولا صبر وانتظار، لكان موسى أولى به وأحرى. ومن رحمة الله أنه ينزل مع كل بلاء رحمة، فموسى بعد أن قذفه أمه في اليم، حفظه الله من الموت والغرق، ولما وصل لفرعون أنطق الله الرحمة وأحاطه بها حتى لا تصله يد الظلم والقتل، وحين أصبح فؤاد أمه فارغاً وعانت ما عانت، ردّ الله إليها تضمه وترضعه. وحين قتل الرجل وتأمر القوم عليه بعث إليه رجلاً يسعى يخبره وبحذر، ثم أنجاه الله من القوم الظالمين، وأغناه ربه بعمل يده! ومع كل بلاء رحمة.

حين تراقب الصراع بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأعدائها من الصهاينة وأتباعهم، وما يقع على هذه الأمة المرحومة من ظلم وطغيان، وكيد وتأمر، فلا تغرق في الأخبار والأحداث اليومية، وتذكر أن الله يصنع أتباع محمد وموسى وإبراهيم على عينه، وأن الله يصفعهم لنفسه، وأن الخوف من الاستئصال في حال النشأة، والخوف من القتل في حال الفتنة والقوة، وأن لهم والغم والفتنة ما هو إلا طريق الصناعة والرعاية، لقدر الله الغالب: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)» (سورة يوسف).

المصادر: